ذكر ما حدث في البادية

يقال أنه في إحدى البوادي وعلى أرجح القول أنها بادية الشام، خرج رجل وولده مع مئة رأس من الماشية، يبغون وراء الكلأ والمراعي، وذلك بعد أن منّ الله عليهم، وأغدق بواديهم بغيث جعل مضربا للمثل في الديار الشامية كلها والعراق لأعوام عدة من فرط وفرته وعظيم بركته، فكان صيبا نافعا لا يعرفه الضرار من بين يديه ولا من خلفه، وأصبحت به بواديهم روضة كروضة القائل:

وروضة منك ظل الغيث ينسجها حتى إذا انتسجت أضحى يدبجها

وبقي الرجل مع ولده في البوادي يتنقلون بينها مدة يقال إنها أسبوعان تزيد أو تنقص، حتى أتى يوم رأى الراعي في ولده إضناء وتعبًا قد يشق عليه العمل معه، فأشفق عليه، وأذن له بالبقاء للراحة في الخيمة، بينما سيرعى الماشية وحده على مقربة منه، ولما كان أمر الله عز وجل مفعولا، سرح الراعي بماشيته شيئا فشيئا دونما أن يشعر، حتى غاب عن ناظري ولده، ولكنه لما علم في أبيه من دراية بدروب البادية ومسالكها ما أوقع الأمر في نفسه خوفا ولا ريبة، ولكن دوام الحال من المحال

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

فغياب الأب طال حتى غابت الشمس، وتلاشى الشفق الأحمر من ورائها، وازدانت السماء بكامل نجومها وبدرها المكتمل، فتملك الظن السيئ الابن، وأخذ الخوف منه مأخذه، واحتار ماذا يصنع، أيأخذ بعيره باحثا في الأرجاء؟ أم يبقى منتظرا لعل أباه يعود؟ وفي النهاية قرر المكوث في الخيمة، وأوقد نارا أمامها لعل أباه يسترشد بها إن ضل طريقه وتشابهت دروبه وأشكلت.

وفي غمرة الليل واليأس من عودة الأب، شق صوت صراخ أشبه باستغاثة السكون، فهب على إثره الابن، ولم يعلم إن كان صوت أبيه أم لا، فجعل يقلب ناظريه صوب نواحيه عله يبصر مصدره، ولما كانت الليلة مقمرة أبصر، وإن كان بعد جهد وعناء، على البعد رجلاً يركض نحوه، كان الرجل يقترب بسرعة أسرع من السهم، فركض الابن في اتجاهه مصغي الأذنين؛ عله يتبين ما يقوله، أو يعلم فيه صوت أبيه، فسمعه يصرخ: "غولة غولة"، وأخذ يعيدها ولا ينطق غيرها، حتى اقتربا من بعضهما، فعلم فيه أباه الذي احتضنه بين ذراعيه وجعل يعصره حتى أوشك أن يطبق على صدره ويهشم عظامه، وأخذ يعيد قوله "غولة غولة"، كان بالكاد يقوى على قولها لسوء حالته، فكان يلهث ويبكي، ويملأ عينيه الخوف، ويرتعد رعبا، وثيابه تكسوها الدماء الرطبة، وحينما استجمع شيئا من قوته أردف قائلا: "غولة قتلت كل الماشية والحصان، وهي في أثري"، ثم جعل يقلب ناظريه بين بعير ابنه والخيمة والنار، وقال: "وتد الخيمة... وتد الخيمة..."، ثم سقط مغشيا عليه.

حدث كل هذا والابن في ذهول ووجوم ألجما لسانه وعقدا عقدته، ولما أغشي على والده حسبه قد مات، فجثا بجواره يبكيه، وينظر الدماء على ثوبه لا يدري أهي دماؤه أم دماء الماشية، وبقى على هذه الحال من البكاء والعجز عن الإتيان بشيء في مصابه الجلل، حتى سمع أباه يهذي بكلام لم يع منه شيئا، فقام يهز أباه ويقلبه عله يستيقظ، فلم يفق، ولكن ذلك جعله يستبشر خيرا، فعاد إليه بعض عقله الذي سلبه الفزع، وتذكر قول أبيه

أن الغولة في أثره، فحمل أباه معه على بعيره، وكذلك الخيمة التي لولا ذكر أبيه لها لما أخذها.
لم يدر الابن أين يتجه في هذه البوادي، فكل ما يعلمه أن ديارهم في الجنوب، فنظر إلى السماء، ومن بنات نعش حدد وجهته جنوبا ومضى، وكان الظن بأنه يسير في طريق غير التي يبغونها رفيقه طوال الرحلة، وود لو أن أباه يستيقظ للحظة ويخبره إن كان طريقهم صحيحا أم خاطئا ثم يعود بعدها إلى حاله مغشيا عليه؛ ولذلك كان كلما اعترض طريقه جبل أو عارض يهز أباه عله يفيق ويرشده، ولكنه بقي على حاله لا حول له ولا قوة.
ورغم أن تلك لم تكن أول مرة يخرج فيها مع أبيه إلى البادية، إلا أنه لم يشغل باله قط قبل يومهم هذا بحفظ دروبها وجبالها وشعابها، فهو لم يخطر على باله ولم يتخيل نفسه يسير فيها يوما بلا مرشد ولا دليل، فأرخى ذلك كله -التيه وأبوه والغولة- شيئا من الكآبة ما رأته عيناه في ليلة مقمرة من قبل، فتبدل حاله مع الليل العاشق له ولمجالسه، من حال كحال صاحبنا صاحب أمامة:

نأتك أمامة إلا سؤالا وإلا خيالا يوافي خيالا
يوافي مع الليل ميعادها ويأبى مع الصبح إلا زيالا
فذاك تبدل من ودها ولو شهدت لم توات النوالا

إلى حال كحال القائل:

ومن الليالي ليلة مزؤودة غبراء ليس لمن تجشمها هدى

وبقوا جميعا على هذا الحال، حتى أتتهم الطامة التي زادتهم سوءا فوق سوئهم، إذ سمعوا زئيرا ليس كمثله زئير، تشعر من عظيم شدته وهول قوته أن مطلقه رابض على أذنيك، فأصاب البعير مس جعله ينطلق كدابة لحق بها سعار، بينما تملك الرعب من الابن فتشبث بيد بوالده وبيد بالبعير، وأخذ يحاول تهدئته وكبحه، بينما أذناه عاجزتان عن تحديد ناحية الصوت، فهو كان يأتيهم بنفس القوة من جميع النواحي، وكأنما يأتيهم من السماء، فتيقن أنها الغولة أدركتهم، فجعل يهز أباه بقوة عله يفيق ويساعده، فمر به طيف أبيه حينما عاد من المرعى راكضان وتذكر حالته حينها، وأن ما به من إغماء ليس إلا بسبب الغولة، فاستشعر أنهم هالكون لا محالة، وبدأت قواه تخور، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من اللحاق بحال أبيه، إلى أن توقف البعير فجأة وقعى وانقطع الزئير، فلم يدرِ الفتى ما حدث، وظن أنهم نجوا، فانفرجت أساريره حتى عنت له جمرتان على قمة تل أمامهما، فتأملهما مستغربا حتى استبين أن التل هو الغولة عينها والجمرتان عيناها، ورأى فيها ما رآه القائل:

فلم أنفك متكئا لديها * لأنظر مصبحا ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح * كرأس هر مشقوق اللسان
وساقا مخدج وشواة كلب * وثوب من عباء أو شنان

فلم يدري ماذا يفعل، لكنه ما وجد بدا مع هذا البعير المتسمر مكانه والأب المغشي عليه، إلا أن يستل سيفه ويركض نحوها، وكان في قريتهم معروفا بإجادته للقتال بالسيف وفنون المبارزة، وبينما هو كذلك هوى الأب من على ظهر البعير فأفاق، وبالكاد أبصر في الظلمة ولده وسيفه أمام الغولة، فهم أن ينطق ولكن لسانه خذله، فحاول مرة تلو مرة، ولما غرزت مخالبها في أحشاء ابنه أجهش بالبكاء، وانحلت عقدة لسانه، وقال: "بالوتد الخشبي، بالوتد الخشبي تقتل الغيلان"، وطفق يقبض على الرمل بيديه كما لو كان يعصره، ويبكي حتى أردته الغولة بجوار ابنه والبعير والوتد.

تمت

الهوامش :

* القصة من وحي قصيدة Der Erlkönig لجوته وألف ليلة وليلة والأدب شعبي.

* الأبيات على الترتيب للشعراء :
1- الخبز أَرزي.
2- أبو البقاء الرندي.
3- عمرو بن قميئة.
4- الأسعر الجعفي.
5- تأبط شرا.